المعرّي وفلسفتهُ

(١) مذهب النشوء

ان كان مذهب دارون حديثاً فتنازع البقاء قديم شعر بهِ الناس منذ وجدوا وصرح بهِ حكماؤهم وشعراؤهم في الامثال والاشعار كلٌّ على طريقتهِ ومنوالهِ . فمنهم من وصفهُ ولم يفطن اليهِ ومنهم من فطن اليهِ ولم يعمهُ ومنهم من شعر بهِ شعور المتألم منهُ المتكر عليهِ . ولعلَّ اشد شعراء الامم نقمة على تنازع البقاء وذكراً لهُ في نظمهِ ونثرهِ ابو العلاء المعري . ولا عجب في ذلك فان المعري نزل الى معترك هذه الحياة العصيب عزلاً من الاسلحة المنجحة فيهِ . نزل اليهِ يتيماً فقيراً سوداوي المزاج مفرطاً في الحس وكان ارفع خلقاً من ان يُسف الى منافسة امثالهِ الشعراء على ما يتكسبون بهِ . وكان رحيماً رحمة كادت تكون مرضاً وناهيك بمن يشفق على البرغوث أن يُقتل وعلى النحل ان يشتار عسلهُ . وليس بواحدة من هذه الخلال يحمد المرء غب تنازع البقاء أو يكون ممن يفلحون عن وطأتهِ و ينظرون اليهِ بعين الرضى والارتياح وهو ما هو عنفاً وقسوة واثرة وخداعاً وانتهاكاً في معظم الاحيان لحرمات الاخلاق الفاضلة والمبادئ الرفيعة . فلذلك شعر بهِ المعري شعور المقاتل الاعزل بالهزيمة واوحى الالم والاشفاق الى وجدانهِ قبل تسعة قرون ما اوحاهُ الاطلاع والاستقصاء والتنقيب الى فكر دارون في الزمن الاخير

ولو كانت اشارة المعري الى تنازع البقاء كلة بثت لحظة ابتسمها الالم قطَّرها القلم لما كان في هذه الاشارة ما يجيز لنا قرن اسمهِ بتنازع البقاء ولكان الأحرى بتلك الاشارة ان تُردد في معرض الاستشهاد كغيرها من الخواطر الشعرية . ولكن اشارات المعري في هذا الحق كانت اشبه بالتدقيق العلمي منها باللمحة الشعرية واقرب الى التأمل الدائم المتسلسل منها الى النظرة العارضة التي لا تبدأ في الخلد حتى تنتهي و ينطوي اثرها . فانك لا تقلب صفحة من الزوميات او غيرها الا سمعت منها انة او انات يتغير موضوعها ومبناها ولا يختلف مضمونها ومغزاها وكلها نعي وتبكيت للعالمين على ظلمهم وتنافرهم ومكر بعضهم ببعض . وكأن الآلام المبرحة التي يعرفها المخذول في كل حرب ويجهلها الظافر قد جسمت هذه الحائلة لهُ وغلطتها فاحاط بدقائقها البعيدة ولم تخفَ عنهُ خافية من وجوهها المختلفة بين انواع المخلوقات لحظ التنازع بين الناس على حقيقتهِ وهو اقرب الاشياء الى اذهان الناس لو التفتوا اليهِ

ولكنك على كثرة الشعراء لا تجد مثلاً في شعر احد كما هو مثل في شعر المعري . فمن قوله في ذلك : —

أما تكون بني الدنيا عقولهمُ تصد عن التنافس والتعادي
اذاة من صديق او عدوٍّ فبؤساً للاصادق والاعادي

واوضح منهُ في هذا المعنى قولهُ : —

تنازع في الدنيا سواك وما لهُ ولا لك شيءٌ في الحقيقة فيها
ولم تحظَ في ذاك النزاع بطائل فتنقعها مثل مختلفيها

واوضح من قوليهِ هذين قولهُ : —

تناهيت العيشَ النفوس بغرة فان كنت تستطيع الثهاب فناهِ

وزاد على ذلك فبين ضرورة هذا الخلاف فقال : —

لولا التخالف لم تركض لغارتها خيل ولم تُثن ارماح وأسيافُ

واحسبهُ استطرد من النظر في اطوار الانسان الى النظر في اطوار المخلوقات كافة فاجمل الحكم عليها في هذا البيت الجامع : —

ولا يُرى حيوانٌ لا يكون لهُ فرق البسيطة اعداءٌ وحسادُ

وفصّل هذا القانون العام في عدة مواضع من لزومياتهِ فقال : —

يهاجر غابهُ الضرغام كيما ينازع ظبيَ رمل في كناسِ
سجايا كلها غدر وخبث توارثها اناسٌ عن اناسِ

وقال : —

تدري الحمامة حين تهتف بالضحى ان الاجادل لا تطيل جدالها

وقال وهو لا يفرق بين الاقوياء والضعفاء في هذا النزاع بل يشملهم بهِ جميعاً فيقول : —

ظلم الحمامة في الدنيا وان حسبت في الصالحات كظلم العقر والبازي

ومن كلامهِ ما يصح ان يعد تلميحاً الى غاية هذا النزاع وهي بقاء الاصلح وانتفاع الغالب برجحانهِ على المغلوب كما يؤخذ من قولهِ : —

نجم آثار الرياض حمامة ويجبها فيها تزاولهُ النقرُ
تهم بنهض ثم تثني برغبة فما شعرت حتى اتيح لها صقرُ
وقد عرفتها امها امس شرهُ وان الردى يقرو المكان الذي تقرو

ولو علمتم بداء الذئب من سغب اذن لسامحتم بالشاة للذيب

ومثلهُ قولهُ : —

ولولا حاجة بالذئب تدعو لصيد الوحش ما اقتنص الغزالُ

ومثلهُ ايضاً : —

وسخط الظباء بما نالها تولد منهُ رضى الحبائل

واحياناً يتجاوز القول بتنازع البقاء وبقاء الاصلح الى تبرير هذا الرأي الذي قررهُ الشوئيون حديثاً وهو ان لكل حي على الارض سلاحاً خاصاً يتقي بهِ عدوهُ ويكدح بهِ لنفسهِ . وليس أصرح في هذا الرأي من هذا البيت : —

وما جُعلت لاسود العرين اظافيرُ الاّ ابتغاء الظفرْ

واقل منهُ صراحة في ذلك البيتان : —

اذا كُف صلُّ افعوان فما لهُ سوى بيتهِ يقتات ما عمر التربا

ولو ذهبت عينا هزبر مساور لما راع ضأناً في المراتع او سربا

فاذا راجعت الابيات المتقدمة مع كثير من امثالها التي اكتظت بها دواوين المعري امكنك ان تجزم بان الرجل سبق أسبق المتأخرين الى ادراك تنازع البقاء وما يلابسهُ من الافكار . ادركهُ متكرراً جامعاً لا متفرقاً طارئاً . فاذا قيل ان داروين واضع المذهب في عالم العلم ساغ لنا ان نقول : والمعري واضعهُ في عالم الادب والشعر

و يظهر ان فرط الشعور بتنازع البقاء لا ينفك عن فرط الشعور بالمحافظة على الذات وهذا امر طبيعي معقول اذ لا يعرف قيمة الشيء كمن يعرف مقدار التزاحم عليهِ . ولذا كثر كلام المعري في حب الحياة والافتتان بالدنيا كما كثر كلامهُ في التنافس والتباغض فهو يرددهُ في قصائدهِ ولا يبرئ منهُ نفسهُ و يتهم من يظهر خلاف ذلك بالكذب والمراء كما قال في لزومياتهِ : —

شقينا بدنيانا على طول ودها فدونك مارسها حياتك واشقها

ولا تظهرنَّ الزهد فيها فكلنا شهيد بان القلب يضمر عشقها

وكما قال ايضاً

ومن العجائب ان كلاً راغبٌ في ام دفر وهو من عيّابها

الى كثير غير ذلك . وهو لا يكتفي هنا ايضاً بالحكم على الانسان فحسبُ بل يشمل بحكمهِ الاحياء جميعاً فيقول : —

أرى حيوان الارض يرهب حتفهُ ويفزعهُ رعدٌ ويظمعهُ يرقُ

ويقول كذلك : —

تسريح كفك برغوثًا ظفرتَ بهِ أبرُّ من درهم تعطيهِ محتاجا

كلاهما يتوقى والحياة لهُ حبيبة ويروم العيش مهتاجا

وتعميم المعري الحكم على الانسان والحيوان معًا كما نسب الى الانسان خلقًا من الاخلاق طريقة ذهنية عجيبة لا نستطيع تأويلها الاَّ اذا قلنا بان الرجل كان يعتقد ان الانسان والحيوان من عنصر واحد وانهُ كان في صميم نفسهِ نشوئيًّا بالغريزة وان لم يعلم بذلك فكرهُ علمًا يصح الاستدلال بهِ

(٢) مذهب التشاؤم

على ان هذا الارتباط بين الشعور بتنازع البقاء والشعور بحب البقاء يفسر لنا سر فلسفة المغالين في التشاؤم المبالغين في النقمة على الوجود فليسوا هم باشد الناس كرهًا للحياة كما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى ولكنهم اشد الناس حبًّا لها وضنابها . وهم لا يسبُّون الحياة سبَّ المحتقر المزدري بل سب الرجل المرأة التي يتولَّه بها و يعبدها ثم لا يخلى بطائل منها ولا يجد عندها صدى غرامهِ بها

وقد انتهى بالمعري النظر في هذا المعترك الضروس كما انتهى بعدهُ بايام المتشائمين ارثر شوبنهور فكلاهما يقول : — ما دامت الدنيا كفاحًا لا راحة فيها وما دام الغالب اليوم يغلب غدًا والموت يهلك الغالب والمغلوب على السواء فالحياة وقر فادح والعيش عبث والعدم افضل من الوجود » . الى آخر ما اتفق عليهِ مزاجهما من ايثار العزلة والاستئناس بالحيوان والتول بارادة الحياة مع التنفير منها واحتقار النساء وتحريم الزواج . ومن هنا يظهر خطأ الاثنين بل خطأ المتشائمين جميعًا في التعقيب على تنازع البقاء . فلا شك انهُ لو وقعت هذه الخواطر لاناس ذوي مزاج مختلف عن مزاجهم لما استخلصوا منها هذه النتيجة ولرأوا ان الاولى بهم ان يقولوا : ما دامت الدنيا غلابًا فكن انت الغالب وما دام الموت قضاء لا مفرَّ منهُ فلا يهمنك امرهُ وليهمنك ان تنال من الحياة اقصى ما يُنال فلأن يدركك الموت سيدًا خيرٌ من ان يدركك مسودًا » . وليس العجيب ان يتفاوت حكم الناس في المسألة الواحدة من النقيض الى النقيض ولكن العجيب ان نعلم ما للدنيا من الوان لاعداد لها و بما للناس من حالات واميال لا يحصرها الفكر ثم نطالبهم بالاتفاق على الكبائر والصغائر او نقدح مثلاً في فلسفة المتشائمين لانهم يرون الحياة من جانبها المظلم ونحن لا نراها الاَّ من الجانب الابيض المنير . ومن الخطا

ان يرفض النقّاد فلسفة التشاؤم جملة لبعد اصحابها عن حياة الأعمال الدنيوية ولا يذكروا ان هذه الدنيا غاصة بالنقائص وان هناك جبلات اسرع الى استكناه هذه النقائص من سواها وليست هي جبلات اهل الاعمال لان هؤلاء مصروفون باعمالهم عن مشاهدة ما يقع حولهم — ومن اين للقاتل المنهمك في المعركة ان يحيط بما يجري في غضونها؟

واذا قلنا اتفق مزاج المعري وشوبنهور ولم نقل اتفق عقلها لاننا نعتقد ان المتشائمين كلهم من مزاج واحد وهذا علة اتفاقهم في الاقيسة التي يذهب فيها الناس مذاهب شتى وادراكهم المسائل على وتيرة واحدة وان كانت مما تتشعب فيه الافكار فقد اتفق المعري وشوبنهور على كل رأي اشتركا في الالمام به ولو لم يكن من اصول فلسفة التشاؤم . خذ مثلاً ادراكها للزمان فان المعري يتصوره كأنه نفس طائر في اثر نفس وكأنه اجزاء متفرقة يجمعها كلٌّ واحد فيراقبهُ مراقبة من لا يسهو عنهُ ويتبع كل نفس بزفرة المشيع الآسف ومن هذا النحو قولهُ : —

نفس بعد مثلهِ يتقضى فتر الدهور والاحيانُ

وقولهُ

لهفي على ليلة ويوم تألفت منهما الشهورُ

وقولهُ

اما المكان فثابت لا ينطوي لكن زمانك ذاهب لا يثبتُ

ويلحق بهِ قولهُ

قدم الزمان وعمرهُ ان قستهُ فلديهِ اعمار الدهور قصارُ

وكذلك يقول شوبنهور مع الفرق بين الاسلوبين الشعري والفلسفي : « الزمن هو ذلك الذي يفتأ يجعل الاشياء لا شيء في ايدينا فتفقد بذلك قيمتها » ويقول « نحن نسلب يوماً كل مغرب شمس » ويقول : « ان وجودنا مستقر على الحاضر الذي ما ينى ابداً متسرباً طائراً فلا بدَّ لهُ اي لوجودنا من ان يتلبس بالحركة الدائبة الدائمة بلا امل في الوصول الى الراحة التي ننشدها . مثلنا في ذلك مثل المتحدر من جبل عالٍ فهو يسقط اذا حاول الوقوف »

ولا يشعر بالزمن هذا الشعور الا الذي يحصي كل لحظة تمر بهِ ساءة والما كالسائر المتعب الذي يلتفت بعد كل خطوة يخطوها الى المسافة التي خلفها وراءهُ والمسافة التي لا تزال امامهُ . ولا تخطر فكرة استقرار الوجود على الزمن الا لمن يرى ان الحياة إنّ هي الا زمن غير لا تكوين يستتم قواهُ وجزءاً من الطبيعة يأخذ منها وتأخذ منهُ . ولسنا نقول ان الزمن

ثابت والمتشائمون يتصورونهُ غير ذلك وانما نقول ان تصورهم هذا خاص بمزاجهم . فكم من الناس حتى الفلاسفة والمفكرين والعلماء لا يشعرون بالوقت منعزلاً عن الحياة لانهم يقيسون الحياة بحركاتهم التي هم مستغرقون فيها لا بحركات الافلاك والسيارات . وكم من الناس في قرار وجدانهم لا يتصورون للوقت وجوداً فضلاً عن تصورهم ان الوجود مستقر عليهِ

وهما اي المعري وشوبنهور سيان في الرأفة بالحيوان واستطلاع اطوارهِ وعاداتهِ . وقد رأيت كيف كان المعري يستعرض اخلاق الانسان في طبائع الحيوان فانظر ماذا يقول شوبنهور . يقول : « اي لذة تداخلنا عند ما نرى حيواناً مطلقاً يدير شؤونهُ بنفسهِ غير معترض ولا مسوق . تراهُ إما يتلمس طعامهُ او يتعهد صغارهُ او يخالط الحيوانات من جنسهِ الى نحو ذلك . ان هذا هو الذي ينبغي ان يكون وهو الذي لا يمكن ان يكون سواهُ . فان كان ذلك الحيوان طائراً امتعت نفسي بالنظر اليهِ برهة من الزمن . لا بل فليكن فأراً مائياً او ضفدعاً فذلك لا ينقص من سروري بالنظر اليهِ . ويعظم سروري بهِ ان كان قنفذاً او عظاءة او إيلاً او غزالاً . وما كان التأمل في احوال الحيوانات ليسرنا لولا اننا نأنس فيها حياتنا مصغرة بسيطة »

ولم يعدُ شوبنهور الصواب في هذا التعليل الاَّ اننا لا نجد الناس كلهم يسرون بالتأمل في احوال الحيوانات كما يسر بذلك المتشائمون . ولا نظن هذا السرور آتياً الاَّ من فرط احساسهم بالحياة فهم يعطفون على كل حي ويبحثون عن مظاهر الحياة في جميع طبقاتها . وسيطول بنا الشرح لو تمادينا في المقارنة بين المعري وشوبنهور على هذا النمط فانما المقارنة بينهما بمثابة تحليل لمزاج واحد . ولكن لعل اعجب ما اتفقا عليهِ وفاؤهما لوالديهما وفاء لم نعهدهُ في الفلاسفة الذين يغتبطون بالحياة ولا يشكون غصصها . فشوبنهور اهدى كتابهُ (الدنيا كارادة وفكرة) الى والدهِ واثنى عليهِ اطيب الثناء في كلمة الاهداء . والمعري رثى اباهُ ابلغ رثاء وهو القائل

على الولد يجني والد ولو انهم ملوك على امصارهم خطباء

فما اعجب هذا الوفاء من بعد الولادة جناية من الآباء على الابناء !

عباس محمود العقاد